ان هذه الفقرات لا تعبر الا عن الجزء اليسير من المفاهيم الشائعة . هذه المفاهيم التي تحكم وتتحكم بالمرأة في المجتمعات المتخلفة والرأسمالية . والتي يبدو لغالبية الناس انها صحيحة وان الفروق بين الرجل والمرأة هي بفعل الطبيعة التي جعلت المرأة عنصرا ضعيفا رقيقا ناعما والرجل قويا خشنا صلبا. وقد عاشت هذه المفاهيم عصورا كاملة وتجاوزت العصر تلو العصر دون ان تحظى هذه الظاهرة بالاهتمام الذي تستحقه لدراستها مثل ما كانوا يهتمون بدراسة طبيعة الارض والاجرام السماوية وغير ذلك من الامور رغم محاولة بعض المفكرين والعلماء الالتفات الى وضع المرأة لكنهم لم يتجاوزوا بهذه المحاولات مفاهيم عصرهم على العموم ، بل ان بعضهم كان يعمق هذه المفاهيم بادبياته .

الا ان النظرية الاشتراكية فسرت اسباب هذه الظاهرة ووضعت لها الحلول واعادة المرأة الى تبؤ مكانتها كانسانة في عملية الانتاج والتطور .

لقد اعتمد التفسير العلمي لواقع المرأة على نظرية صراع الطبقات منذ ان بدات الملكية الخاصة بالظهور.

وقد نجحت هذه النظرية بعد ان فشلت كل التفسيرات والنظريات المتتالية الاخرى التي لا تاخذ هذه الموضوعة بنظر الاعتبار بايجاد الحلول لانهاء اضطهاد المرأة .

لنر كيف فسرت النظرية العلمية هذه الظاهرة .

ظهور الملكية الخاصة ادى الى استغلال الانسان للانسان

منزلة المرأة في المشاعية البدائية

منذ بدء الخليقة حتى الان عرفت عدة تشكيلات اجتماعية ، وتميزت هذه التشكيلات بعلاقات انتاج خاصة بها تتغير وتتحول مع تطور القوى المنتجة وتحولها . وعلاقات الانتاج تشكل بمجموعها ما يسمى العلاقات الاجتماعية ، وهي ، تشكل مجتمعا في مرحلة معينة من التطور التاريخي ، مجتمعا مميزا معينا ، يميز في الوقت نفسه مرحلة خاصة من مراحل تطور الانسانية التاريخي .

« ان اسقاط الحق الامومي كان هزيمة تاريخية عالمية للجنس النسائي . فقد اخذ الزوج دفة القيادة في البيت ايضا ، وحرمت المرأة من مركزها المشرف واستذلت، وغدت عبدة رغبات زوجها، وامست اداة بسيطة لانتاج الاولاد » .
فريدريك انجلس

ومن المعروف ان المجتمع البدائي كان قائما على اساس شيوع ملكية الناس البدائيين لوسائل الانتاج البدائية (الارض وادوات العمل ، ادوات صيد ـ فاس حجري وغير ذلك) لذا كان العمل المشترك لاعضاء الجماعة البدائية وتعاونهم شرطا ضروريا لانتاج الادوات ، وللحصول على مقومات الحياة ، وللصراع مع الطبيعة .

ولم يكن استغلال انسان لانسان موجودا في المجتمع البدائي بل لم يكن هذا الاستغلال ممكنا فيه لانه لم يكن باستطاعة الانسان ان ينتج من وسائل الحياة الا ما يكفي لسد الحاجات الضرورية له اي لم يكن هناك انتاج يفيض عن الحاجات الضرورية للفرد وللجماعة الامر الذي لا يتيح مجالا للاستغلال ويجعل كل الجهود منصبة على خدمة المجتمع بأسره، انها شيوعية بدائية .

لقد كان العمل مقسما بين افراد القبيلة كل حسب قوته وقدرته ، كما كان مقسما بين الرجل والمرأة على حد سواء . لهذا كان الناس ينتفعون بدرجة واحدة بانتاج الخيرات المادية .

وكان يسود في هذا العهد النظام الامومي ، حيث كانت الام هي عصب العائلة ، وكان ينسب اليها الاطفال وكانت المرأة تقوم باكثر اعباء الحياة . كما كان لها مرتبة اعلى من مرتبة الرجل وكانت العشيرة تحترمها كثيرا تقديرا لها لان الطبيعة خصتها بانجاب الاطفال دون الرجل . وبما ان هم الانسان في هذا المجتمع كان يتركز على انتاج المادة الغذائية لهذا احتلت المرأة هذه المكانة لان انتاج عملها كان يشكل المورد الرئيسي والدائم لغذاء العائلة من جميع الفصول الا وهو ما تجمعه من الثمار النباتية بالوقت الذي كان فيه انتاج الرجل الغذائي من الصيد ضئيل جدا لعدم توفر الفريسة بصورة دائمة ولكن التطور الذي حدث بعد ذلك في قوة المجتمع البدائي المنتجة (كتحسين الادوات الموجودة واختراع ادوات جديدة ، وظهور تربية الموشي ، والزراعة، واستعمال الفلزات) ادى الى حدوث تغيير في علاقات الانتاج وتفسخت المشاعية البدائية حيث بدات الانقسامات في القبيلة والعشيرة الى عوائل واصبحت العائلة الخلية المستقلة للحياة الاقتصادية وصار الناس ينتجون اكثر مما كان يلزمهم للاستعمال المباشر واعان صنع المنتوجات الزائدة على تطور المبادلة بين القبائل في البداية ومن بعد داخل القبيلة ايضا وتظهر امكانية الاستئثار بثمرات اتعاب الغير وتنبثق الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وزاد في الوقت نفسه مجموع العمل اليومي الذي يقع على عاتق كل فرد من افراد العشيرة ، او المشاعية المنزلية ، او الاسرة المنعزلة فصار من المرغوب فيه ضم قوى عمل جديدة قدمتها الحروب، وهكذا تم تحويل اسرى الحرب الى عبيد .

لقد ولد من اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل اول انقسام كبير للمجتمع الى طبقتين ، اسياد وعبيد مستغلين ومستغلين . ومع تطور القوى المنتجة وظهور الرق ظهر عدم التساوي بين اعضاء الجماعة الواحدة ذاتها وبالدرجة الاولى بين الرجل والمرأة. وكان الكسب دائما من عمل الرجل ، وهو الذي يصنع ويملك الوسائل الضرورية لهذا الكسب .

وكان كل ما يأتي به الانتاج آنئذ من ربح يعود الى الرجل وكانت المرأة تتمتع به معه ولكن دون ان تكون لها اية حصة في ملكيته .

اضمحلال سلطة المرأة

ولان الابناء كانوا ينتسبون الى امهاتهم كانت الارض تذهب الى اقارب الام بحكم قرابة الدم . وحين زاد الانتاج زادت الثروة وزادت معها الملكية الخاصة فرض الرجل سيطرته اكثر فاكثر وانتزع من الام حقها الاول لينسب اولاده اليه ويورثهم ارضه واملاكه .

يقول انجلس : (ان ضياع حق الام في النسب كان هزيمة النساء التاريخية الكبرى فقد سيطر

• بالقضاء على الملكية الخاصة تم القضاء على الاستغلال

الرجل على البيت ايضا واصبحت المرأة عبدا له تقوم على خدمة شهوته وتكون اداة لانجاب اطفاله ، واعطى نفسه حق قتلها كما كان يقتل عبيده) .

وبدا النظام الابوي يتطور اكثر واكثر لصالح الرجل بطبيعة الحال ، وفرض الرجل على المرأة ان تكون له وحده حتى لا يختلط اولاده باولاد الغير ، واعطى نفسه حق تعدد الزوجات والخليلات فاصبحت الوحدانية في الزواج فرض على المرأة وحدها .

ان السبب الرئيسي لتدني مرتبة المرأة يعود الى ان انتاجها لم يعد يكتسب الاهمية التي كان يحتلها من قبل وذلك لتعدد مصادر المواد الغذائية التي كان ينتجها الرجل الى جانب المواد الاخرى الانتاجية. وفيما بعد ظهر عدم التساوي بين رؤساء الاسر المختلفة ، وساعد عليه ما نتج عن التقسيم المتزايد للعمل من جراء تطور المقايضة بعد الاتساع الذي اصاب الزراعة . ولم يعد ممكنا ان يقوم الفرد نفسه بفعل بلغ هذا المبلغ من التنوع فحصل اذ ذاك تاثير تقسيم كبير للعمل . فانفصل العمل الحرفي عن الزراعة ، والى جانب الفارق بين الاجراء والعبيد نشات فوارق جديدة بين الاغنياء والفقراء . فمع هذا التقسيم الجديد للعمل نشا انقسام جديد للمجتمع الى طبقات .

ظهور الدولة واضطهاد المرأة

وقد ادت كثافة السكان المتعاظمة الناشئة عن انتاجية العمل المتعاظمة وعن تزايد الروابط بين مختلف القبائل الى دمج البطون والقبائل ، شيئا فشيئا في شعوب ، ونجد من جهة اخرى ان تفسخ المشاعة البدائية ، والتفاوت المتزايد بين اعضائها. وعلى الاخص استخدام عمل العبيد على نطاق عام ، كل ذلك ادى الى تشكيل الدولة كجهاز سيطرة من الطبقة المستغلة على الطبقات المستغلة ، وفي وقت واحد مع ظهور الدولة . ولد القانون ، نظام القواعد والاصول التي تثبت فيها ارادة المستغلين.

ومع نهاية المجتمع البدائي وظهور الملكية الخاصة التي استمرت وتوسعت واخذت اشكالا عديدة فيما بعد في الانظمة التي تلته (الرق ، الاقطاعية ، الراسمالية) . ومع وجود الملكية الخاصة وظهور الطبقات بدا اضطهاد المرأة في هذه المجتمعات ياخذ اشكالا متعددة ووسائل متنوعة بالاعتماد على التشريعات والقوانين التي تبنتها الطبقة الحاكمة مستندة الى تعاليم رجال الدين والفلسفة والقانون والعلم .

واخذ هذا الاضطهاد يزداد بشاعة كلما ازداد التكالب على الملكية الخاصة والاثراء .

يقول فريدريك انجلس « ان التقسيم الاول للعمل في (تاريخ الانسان) حدث بين الرجل والمرأة في رعاية الاطفال ، وكان اول صراع طبقي في التاريخ هو الصراع بين الرجل والمرأة في ظل الزواج الوحداني وان اول خضوع طبقي كان خضوع الزوجة لزوجها . لقد كان هذا الزواج تاريخيا من ناحية ، لكنه من الناحية الاخرى انتج الرق (العبيد) والملكية الخاصة ، وتلك الظاهرة المستمرة حتى اليوم ، هي ان كل تقدم ليس الا تاخرا نسبيا حيث ان تقدم مجموعة من الناس ليكون على حساب شقاء وتخلف مجموعة اخرى) .

ولم تكن الحربين العالميتين السابقتين والحروب التي لا تزال تشتعل في مناطق متعددة من العالم الا نتيجة مجتمع بشري نما عقله وعلمه وتضاءل وجدانه وانسانيته ، مجتمع بشري يتنافس على الطمع والملكية وامتلاك اقصى ما يستطيع مجتمع غلبت فيه القيم التجارية على القيم الانسانية واصبحت القيم مقدار « ما يكون » .

ومما تقدم يتضح لنا ان تشويه العلاقة بين الجنسين وسيادة جنس على اخر او سيادة طبقة على اخرى لم يكن نتيجة التشويه الانساني الذي طرا على الحضارة القديمة بل بسبب الاطماع الاقتصادية التي اصبحت تتزايد مع تزايد وسائل استغلال الانسان للانسان .

لقد تفاوتت نسبة الاستغلال من مجتمع الى اخر وبين طبقة وطبقة وبين جنس وجنس . ولكن اصاب المرأة في جميع هذه المجتمعات القسم الاكبر من الاضطهاد وخضعت اكثر لقيم اخلاقية رجعية بالية حيث كان اضطهادها وركونها احد الاسباب الرئيسة التي ساهمت باستمرار هذه الانظمة اللاانسانية .

كما تفاوتت نسبة الاضطهاد بين امرأة واخرى حسب انتمائها الطبقي :

فالمرأة في الطبقات الدنيا تعاني اكثر مما تعانيه المرأة في الطبقات السائدة لانها :

اولا : غير مؤهلة للعمل ومقصاة عنه .

ثانيا : لا تملك شيئا من وسائل الانتاج .

ثالثا : لا زوجها او اخاها او اباها مضطهدون ايضا بحكم العلاقات الانتاجية والاخلاق السائدة في المجتمع الطبقي .

ان القوانين والتشريعات التي تسنها الطبقات الرجعية الحاكمة لا تسري على اعضائها نساءا كانوا ام رجالا . بل هي فقط مجرد قوانين وقيم سنت لاجل اخضاع الطبقات الاخرى .

ان النساء اللواتي ينتمين الى الطبقات الغنية الحاكمة يمارسن بدورهن عملية الاستغلال والاضطهاد ضد نساء ورجال الطبقات الفقيرة على حد سواء .

لذلك نقول ان وضع المرأة الاقتصادي وانتماءها الطبقي هما اللذان يحددان سلوكها وتصرفها فما يجيز لها من تصرفات واعتبارات يحرم على نساء الطبقات الدنيا (المرأة العاملة والخادمة) .

ان نساء الطبقات الرجعية السائدة رغم كونهن يسهمن بعملية اضطهاد نساء الطبقات الدنيا فانهن يعانين ايضا من الاضطهاد وان بشكل يختلف ، وعلى سبيل المثال فرغم التفسخ الخلقي الذي يسود اوساط الطبقات الرجعية فان الرجل وحده يتمتع بحق الطلاق لدى بعض الطوائف الدينية بينما يمنع الطلاق لدى البعض الآخر .

المرأة تخضع لسلطانين
سلطان العائلة وسلطان المجتمع

ان المرأة تشكل نصف المجتمع بوجه عام ومع ذلك فانها تعاني في المجتمعات الطبقية من سلطانين سلطان المجتمع الذي تخضع له هي والرجل على حد سواء وتنفرد هي بالخضوع لسلطان الرجل الذي